الطلاق

حلال عليه بشاعة الحرام

فى سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ متداخلة عقد بين السكان المسلمين فى القاهرة ١٨,٥٤٧ زواجا. وفى هذه السنة نفسها أخرجت ٧,٩٧٣ شهادة للطلاق . فاذا تركنا الكسور جاز لنا أن نقول إن من كل ١٨ زواجا فى القاهرة فشل أكثر من ٧

وتم فى الاسكندرية فى السنة نفسها ٨,٥٦٧ زواجا . وأخرجت شهادات للطلاق بلغت ٣,٠٣٣ أى فشل الزواج فى ثلاثة من كل ثمانية .

فاذا تركنا هاتين المدينتين ونظرنا الى المديريات التى يكثر فيها الريفيون وجدنا أن الحال — من حيث الطلاق — تفضل المدن. ففى المنوفية مثلا بلغت عقود الزواج ١٧,٤٢٦ وشهادات الطلاق ٤,١٥٩ أى فشل ٤ فقط من ١٧ زواجا . وفى الشرقية بلغت عقود الزواج ١٧,٠٦٥ وشهادات الطلاق ٥,٢٤٦ .

وهذه الأرقام تدل على أن الزواج فى الريف أثبت منه فى المدن . ولا بد أن لذلك أسبابا ربما كان أوضحها ، أن عامل الريف — الفلاح — إذا اشتهى زوجة جديدة لم يعمد الى طلاق زوجته القديمة . لأن الزوجة تعمل وتنتج فى الريف وكذلك الأولاد . ولكن عامل المدينة عند ما يشتهى زوجة جديدة يضطر الى أن يطلق زوجته القديمة . لأنه — لغلاء المعيشة فى المدينة — لا يستطيع أن يعول زوجتين وأولادهما .

وواضح أن الطلاق يفشو فى الأوساط الفقيرة وطبقات العمال أكثر مما يفشو فى الأوساط المتيسرة وطبقات الموظفين والتجار . وقد ذكرنا مدينتى القطر الكبريين ومديريتين من مديرياته لكى نبين مقدار الفشل الذى يصيب الأسرة المصرية بالطلاق . فان البيت شركة مالية واقتصادية واجتماعية وثقافية . وكل طلاق يحدث هو بمثابة الإفلاس لهذه الشركة .

وصحيح أن الإفلاس ضرورى أحيانا لأنه يصفى الارتباكات المتراكمة . ولكنه إفلاس مع ذلك يدعو الى الأسف ويسىء الى الكثيرين. وقد يترك جروحا لن تلتئم . وهذا هو الحال فى الطلاق . فانه يحل قيدا قد لا يطاق . ولكنه يبعثر الأولاد وتتفكك منه روابط قد اتفق على توثيقها الكثير من العواطف الشريفة والكثير من المال العزيز .

والزوج الذى يترك زوجته الأولى لن يستطيع أن يقدم على زواجه الثانى بمثل التلهف والشوق والحرارة التى كان يجدها عند إقدامه على الزواج الأول . فان الصورة التى ارتسمت فى ذهنه من الحب قد فسدت . وهو يحس فى نفسه مرارة تجعله كثير التوجس قليل الثقة

فى السعادة التى ينتظرها من الزواج . وكذلك الزوجة المطلقة لن تنتظر ذلك الهناء الذى كانت تتشوق اليه فى سذاجتها قبل الزواج الأول . فسعادة الزوجين قد تحيفها الطلاق وأصابها بنقص لن تبرأ منه .

ولكن الضرر يفدح اذا كان هناك أولاد . فنحن نرثى لليتيم الذى يموت أبوه أو أمه ونشعر أن هذا المسكين قد حرم عطفا هو أحسن ما تسعد به الطفولة . ولكن يجب أن لا ننسى أن الطفل الذى ينفصل أبواه بالطلاق لايختلف عن اليتيم فى شىء من ناحية الحرمان من هذا العطف الأبوى . فإنه يعيش بعد الطلاق مع واحد من أبويه فى بيت يشعره أنه غريب فيه . وقد يشاء الحظ السيئ أن يكون له إخوة من غير أمه أو أبيه يؤثرون عليه فى المعاملة فتتركب فى نفسه أسوأ المركبات من الحسد الى الخبث الى الذلة . ثم يخرج هذا الطفل الى المجتمع فيعامل أفراده كأنهم أعداؤه وكأن كل أمرأة فيه هى زوجة أبيه أو كأن كل رجل فيه هو زوج أمه . فهو لا يعرف من العلاقات الاجتماعية بينه و بينهم غير الحذر والتوجس. ولعل مما يجدر ذكره هنا أن نقول إن معظم الأحداث فى الاصلاحيات قد نشأوا فى أسر فصل الطلاق فيها بين آبائهم . فحرموا من الرعاية والعناية والتربية التى يلقاها الطفل من أبويه ولقوا بعد الانفصال من المعاملة السيئة ما أثار فى نفوسهم أسوأ الاستجابات التى أوقعتهم بعد ذلك فى الإجرام .

ويجب علينا لهذا السبب أن نهيئ جميع الوسائل التى تجعل الزواج ثابتا حتى يتم به هناء الزوجين ، وحتى يتوافر للأولاد الوسط الأمثل لتربيتهم . وأول ما يجب على من يرشح نفسه للزواج من الجنسين أن يعنى العناية الكبيرة باختيار الزوج . وقد قيل إن سهولة الطلاق تجعل الشاب أو الفتاة المصرية تقدم على الزواج دون مبالاة باعتقاد أن الطلاق متيسر فى كل وقت ولكنا نظن أن هذا الاعتقاد بعيد كل البعد عن العروسين ، وأن النية هى على الدوام والاستقرار . ولكن مما لا شك فيه أن كثيرا من الطلاق يرجع الى قلة العناية فى اختيار الزوج . ولذلك يجب أن تطال مدة الخطبة حتى يتم التعارف . ويجب على الشاب أن يتعرف الى أهل عروسه وخاصة أبويها . فقد يحدث الطلاق لخلاف ينشأ بينه و بين أمها أو بينه و بين أبيها . ومدة الخطبة تتسم بالملاطفة والتزين فلا يستطيع الشاب أن يتعرف أخلاق خطيبته . ولكنه يستطيع أن يعرف الكثير من هذه الأخلاق اذا هو نظر الى أمها بالعين الناقدة والذهن البصير . فالفتاة مهما تظهر من أخلاق لن تستطيع فى المستقبل أن تنسى النشأة الأولى التى كانت لأمها اليد الطولى فيها . وعلى غرار هذه الأم ستنشأ الفتاة . فاذا رأى الشاب من أخلاق هذه الأم ما لا يحب ، فعليه أن يحذر هذا الزواج وهو قد يظن أنه يستطيع أن يسوس زوجته على غير الأخلاق التى رأى من أمها . وقد يكون مصيبا فى هذا الظن . ولكن الأغلب أن الفتاة ستلتزم العادات التى تعودتها من أمها منذ أيام الطفولة .

ومن أسباب الثبات والدوام فى الزواج أن يكون الزوجان من طبقة واحدة . لأن اختلاف الطبقات يؤدى إلى اختلاف العادات والذوق والمعيشة. فيجب ألا يختار المتعلم جاهلة أو المتمدن ريفية أو المحافظ متحررة . وكلما قلت الاختلافات كان الوفاق مرجحا بين الزوجين ، لأن لكل طبقة أذواقا خاصة فى المعيشة . ويحدث التصادم من الاختلاف فى هذه الأذواق التى تتسلل الى جميع شؤون البيت تقريبا. فان المائدة الريفية غير المائدة فى بيوت المدن. وقد يشق الزوج عندما يحس العجز فى زوجته عن تقديم الشاى لضيوفه بطريقة مرضية .

وهناك بالطبع مفارقات بالغة تعود الى اختلاف البيئة الاجتماعية . فان الزوج المتمدن الذى يفاجأ فى بيته بجفلة زار لا يمكنه أن يسكن الى المعيشة الزوجية بعد ذلك . والزوجة التى جاءت من الريف وفى جهازها حجر بركانى للاستحمام أو التى تعودت أن تضع البطيخ أو الملوخية تحت السرير لا يمكن أن تتفق مع زوج عصرى .

ومما يعمل أيضا على ثبات الزواج أن يكون الزوجان متقاربين فى السن ، لأن هذا التقارب يعنى تقاربا فى الذوق كما أنه يبعث على توثيق الحب ، وبديهى أن الزوجين لا يربطهما الحب وحده ، فان هناك الرعاية والمزاملة ومصلحة الأولاد ومستقبلهم والمركز الاجتماعى للعائلة ، وهنا ترد على الخاطر كلمة عمر بن الخطاب ، فقد لام رجل بتطليق امرأته بدعوى أنه لا يحبها ، فقال له عمر : " ألم تبن البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية والتذمم ؟ "

ومما يساعد على استقرار الحياة الزوجية أن تكون بين الزوجين مزاملة أى مساواة أو على الأقل مقاربة فى المستوى الثقافى حتى يجد كل منهما فى الآخر الصديق المحدث والزميل المسامر ، وحتى يكون لهما اهتمام مشترك فى شؤون الاجتماع ، وهنا واجب يقع على الزوج وحده وهو أنه منذ أول يوم من الزواج يجب عليه أن يتعهد زوجته بالتنوير والتثقيف حتى ترتفع إلى مستواه أو تقاربه .

وللتلخيص نقول : لكى يتفادى الزوج من أسباب الطلاق يجب عليه :

(١) أن يعنى باختيار الزوجة العناية الكبيرة .

(٢) أن يطيل مدة الخطبة لكى يتمكن من هذه العناية .

(٣) أن يتزوج من طبقته الاجتماعية .

(٤) أن يختار زوجته فى سن تقاربه .

(٥) أن يساعدها على أن تكون زميلته .

وأخيرا يجب عليه أن يذكر الحديث الشريف : " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " ، وقول شوقى " إن الطلاق حلال عليه بشاعة الحرام " .

* * *

و إلى هنا قد ذكرنا ما يجب على الزوج، و بديهى أن الزوجة أيضا عليها واجبات لا تختلف كثيرا عن واجبات الزوج ، فانها هى أيضا يجب أن تعنى العناية الكبيرة باختيار الزوج وأن تؤثر بيتا مستقلا ليس فيه حماة على البيت المشترك ، وكذلك يجب أن تؤثر زوجا من طبقتها الاجتماعية وفى سنها أو أكبر قليلا .

و بعد ذلك يجب ألا تعد الزواج استقرارا بعد الخطبة بحيث تهمل قوامها ووجهها وتترك تزينها ، بل عليها أن تعده استمرارا للخطبة فتصون جمالها وترعاه ، وهناك تلك الزوجة الأمينة المخلصة التى تحب بيتها وتثق بزوجها وتجعل من نفسها مرمطونا فى المطبخ ثم تفاجأ يوما ما بهجران زوجها لأنه يتطلع إلى غيرها ، فلتحذر الزوجة هذه الثقة العمياء ، وعليها أن تمرن عضلاتها كل يوم حتى يسق خصرها ضامرا وصدرها عاليا وقامتها معتدلة ، وحسبها لتحقيق كل هذا أن تمسح غرفة أو غرفتين فى البيت كل يوم ، فان هذه الرياضة تشد عضلاتها وتقيها من الترهل .

ثم عليها أن تتزين فى البيت كما تتزين فى الشارع ، فان الثياب الزاهية الجميلة ليست للجمهور أولا وإنما هى قبل كل شىء للزوج . هذا الزوج الذى لا يرى السيدات الأخريات إلا وهن على أحسن هيئة وأزهى بزة ، وهو يقيم المقارنة فى ذهنه بينهن و بين زوجته التى لعلها فى بعض الأحيان تقابله وهى فى مباذل المطبخ ، ومثل هذه المقارنة إذا تكررت غرست فى نفسه أسوأ الصور لزوجته وربما انتهت إلى أوخم العواقب .

ويجب أخيرا على الزوجة التى تريد أن تحظى بصداقة الزوج وحبه أن تزامله فى جميع همومه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فعليها أن ترقى نفسها ولا تترك ذهنها يترهل ، وأن تقرأ الجريدة اليومية بعناية وتسأل عما لم تفهم كما عليها أن تقرأ ما تستطيع من مؤلفات وتناقش فيها وأن تندمج فى زمرة معينة من الصديقات لهن مثل تربيتها أو أرق منها حتى تنتفع بصداقتهن ، فان الزوج الذى يترك زوجته ويختفى وجهه فى الجريدة أو المجلة أو الذى يتركها لكى يقصد إلى القهوة لمجالسة الأصدقاء إنما يفعل ذلك لأنه يشعر أن زوجته ليست زميلته وأنه لا يرتاح إلى حديثها عن الخدم والأولاد وهذه السيده التى اشترت فستانا جديدا أو هذه الفتاة التى خطبت إلى فلان ، فان كل هذه الشؤون لا تلقى اهتمامه وهو يحتاج إلى غذاء أدسم من هذا لذهنه ، فاذا لم يجد هذا الغذاء فى زوجته فهو لا بد باحث عنه فى القهوة أو النادى أو الكتاب أو الجريدة ، وفى هذه الحال تهى العلاقة بين الزوجين وتغدو عرضة لأن تنقطع فى أى وقت .